

عيسى مخلوف*

تصوير المأساة في أعمال ضياء العزاوي

صبرا - تغني نصفها المفقود بين البحر والحرب الأخيرة: / لمَ ترحلون /
وتتركون نساءكم في بطن ليل من حديد؟ / لمَ ترحلون /
وتعلقون مساءكم / فوق المخيم والنشيد؟
محمود درويش
(قصيدة "مديح الظل العالي")

جريدة حائط تتألف حروفها من الأعضاء المتلاشية المفككة التي سحلتها آلة القتل. الحمامة البيضاء هي الكائن الحي الوحيد في هذه الأرض الخراب، أمّا وجوه البشر المطعونة في الصميم فلا تحضر إلا لتأكيد موتها وغيابها. يستلهم ضياء العزاوي أعماله التي تعبّر عن المجزرة من لوحة غيرنيكا التي أنجزها بيكاسو في سنة ١٩٣٧ خلال الحرب الإسبانية رداً على قصف مدينة غيرنيكا الذي أودى بحياة المئات من المدنيين. لوحة تنطلق من التاريخ الآني لتذهب أبعد منه، ومن مدينة صغيرة منكوبة لتعبّر عن أهوال الوحشية، وعن الوجدع الإنساني بصورة عامة. يروي متحف بيكاسو بمعرضه في باريس، تاريخ لوحة غيرنيكا والمسار الذي مرت به من خلال الأعمال التحضيرية التي يمثل كل

يخضر الفنان العراقي ضياء العزاوي في باريس من ٢٧ آذار/مارس إلى ٢٩ تموز/يوليو ٢٠١٨، من خلال أعماله المعروضة في معهد العالم العربي وفي متحف بيكاسو، وهي أعمال تنطلق من مجزرة صبرا وشاتيلا التي وقعت في أيلول/سبتمبر ١٩٨٢، في أثناء الحرب الأهلية في لبنان، ومن نصّ كتبه جان جينيه عن تلك المجزرة، وأيضاً من حصار مخيم تل الزعتر وسقوطه. في جدارياته ورسومه، وفي أعمال الحفر والطباعة الحجرية التي تصوّر المجزرة، يعلن ضياء العزاوي حنانه الإنساني، ويطلق صرخة مدوية ضد الجريمة. يطغى اللون الأسود وتدرجاته على هذه الأعمال كأنها

* كاتب وشاعر لبناني.

لوحة "الثالث من مايو"، كما لوحة "غيرنيكا"، تنتصران للسلام ضد البربرية، وللعدالة والحق ضد الظلم والطغيان. ألم يقل بيكاسو نفسه: "لا، الفن ليس من أجل تزيين المنازل: إنه إحدى وسائل الحرب الهجومية الدفاعية ضد العدو" (Interview with Simone Téry, 24/3/1945, in "The Oxford Dictionary of Thematic Quotations", edited by Susan Ratcliffe, Oxford: Oxford University Press, 2000).

في هذا السياق، رسم ضياء العزّاي أعماله الملتزمة، من دون أن تسقط اللوحة في خطاب الالتزام وشعاراته. أمّا الالتزام في هذه الأعمال فهو فنّي بقدر ما هو إنساني وسياسي، وهو تعبير عن رفض الصراعات الدموية أينما تكن. وإذا كان العزّاي استوحى من تصوّر بيكاسو العام للوحة "غيرنيكا"، فإن عمله يأتي أيضاً في سياق تجربته الخاصة، أسلوباً ومفردات وبنية فنية، فضلاً عن علاقته بالشعر. فالوجه التي رسمها، والتي هي أقرب ما تكون إلى أقنعة، تجد جذورها العميقة في الفن السومري، وفي تلك العيون الفاغرة، المفتوحة على العدم.

أعمال ضياء العزّاي في معرض باريس ليست فقط تصويراً لمأساة صبرا وشاتيلا وتل الزعتر، بل هي أيضاً إدانة للمأساة الموجودة في العالم، ولا سيما تلك التي يعيشها العالم العربي الغارق في الحروب، والذي يشهد مجازر يومية ودماراً منظماً يطول البشر والحجر. من هنا، فإن هذه الأعمال تنبش ذاكرة الحرب، الجرح الأعمق للإنسان، وهي حكاية العنف الذي يلطخ تاريخ البشر بالدماء، زمناً بعد آخر، وجيلاً بعد جيل.

كتب جان جينيه في كتابه "أربع ساعات في شاتيلا": "الحب والموت، هاتان الكلمتان

منها عملاً فنياً قائماً بذاته. عناصرها وشخصها: الثور، والحصان، والجندي الميت، والنساء الباقيات التي تتخذ عيونهن شكل الدموع، والطفل القتيل...

يخصص المعرض كذلك حيزاً للأعمال التي استوحيت من لوحة بيكاسو، وهي لفنانين من مختلف الجنسيات، ومنهم العزّاي (تدير أعماله في العاصمة الفرنسية غاليري كلود لومان) وجاكسون بولوك وروبير لانغو... يقول العزّاي: "تشكل غيرنيكا منعطفاً في فنّي وفي تاريخ الفن ككل. لقد نجح بيكاسو في ابتكار رموز بسيطة ومعبرة، تاريخية وكونية على السواء، صاغها بأسلوب يتلاءم والقيم الإنسانية والأخلاقية الراضة لاستعمال العنف ضد المدنيين، والذي لا يمكن تسويغه من طرف أي أيديولوجيا وأي نظام سياسي" (مقابلة خاصة للمؤلف مع العزّاي).

كثيرة هي المصادر التي استوحى منها بيكاسو لوحته، ومنها بصورة خاصة محفورات فرانتيسكو دي غويا وعنوانها "كوارث الحرب"، ولوحات لبيار بول روبنز ونيكولا بوسان. أمّا غويا فحاضر بقوة في أعمال بيكاسو، كما أن لوحة "مجزرة في كوريا" التي أنجزها هذا الأخير في سنة ١٩٥١ هي صيغة أخرى للوحة غويا: "الثالث من مايو" (١٨١٤)، وتمثل مسلحين يطلقون الرصاص على المقاتلين الإسبان الذين ألقى القبض عليهم خلال المعارك.

لوحة غويا التي تمثل أيضاً محطة بارزة في تاريخ الفن الغربي بموضوعها وبأسلوبها، كانت مصدراً لأعمال فنية كثيرة منذ القرن التاسع عشر، ومنها لوحة بعنوان "إعدام مكسيميليان" (١٨٦٩) لإدوار مانيه.



لوحة "مجزرة صبرا وشاتيلا" لضياء العزاوي

المصدر: صفحة المعرض في موقع غاليري كلود لومان (Claude Lemand). في الرابط الإلكتروني التالي:

<http://www.claude-lemand.com/exposition/picasso-guernica-from-27-march-to-29-july-2018-musee-national-picasso-paris>



رأس الحصان في لوحة "غيرنيكا" لبيكاسو

المصدر: صفحة المعرض في موقع غاليري كلود لومان (Claude Lemaand). في الرابط الإلكتروني التالي:

<http://www.claude-lemand.com/exposition/picasso-guernica-from-27-march-to-29-july-2018-musee-national-picasso-paris>

يمكن أن يكون، إلى ما لا نهاية، رهينة في يد
فرق التعذيب والقتل.

في أعمال ضياء العزّاوي تترك إلى التغيير
أيضاً، تغيير معطيات الواقع بشغف أكبر،
وبمزيد من الحياة. ■

تتحدان معاً بسرعة كبيرة عندما تُكتب
إحدهما. "لكن لوحات العزّاوي التي أمامنا
تعلن رفضها الحاسم للعنف، وتُشهر حَبّها
للذين كانت جريمتهم الوحيدة أنهم ولدوا في
قلب المأساة. تقول اللوحة إن قدر الإنسان لا